«عودة»..
أوتوجراف على قميص زائر الفجر

(١)

لا تشقْ دائمًا بأصدقائك المجانين، ولا تفوِّت فرصة مشاركتهم بعضًا من جنونهم، في الثالثة فجرًا اتصل بي صديقي الملحن الشاب. أيقظني بجملة واحدة: «البس وانزل أنا مستنيك تحت بيتك!».

بعد دقائق كنت في سيارته الفيات ١٢٨ نقطع الطريق من المهندسين نحو كوبري أكتوبر، البرد في شتاء سنة ٢٠٠١ أشبه بموجات كهربية تضرب أعصاب أطرافك، ولكن هذا الصقيع لم يكفِ لإطفاء فضول ينبش في النفس، وحماس في صوت صديقي الباحث عن فرصة التلحين لأي صوت شاب، فما بالك لو فاز بموعد مع «حميد الشاعري»؟

قال بتوتر واضح: «أنا مصدقتش إنه لسه فاكرني، كلِّمته من كام ساعة، فقالي أروحله على الاستوديو الساعة تلاتة ونص!».

حتى الآن لم أعرف سبب «النصف» المضاف إلى الساعة

الثالثة فجرًا، ولكن المسافة من المهندسين إلى استوديو «إم ساوند» في ميدان تريومف بمصر الجديدة، لم تستغرق أكثر من ٢٠ دقيقة بسيارة منتهية الصلاحية كادت تنقلب بنا في ملفات كوبري أكتوبر المرعبة.

يعرف صديقي كم أحب «حميد»، كنت أسعى للقاء الرجل الذي نَحَت ذوقي الموسيقى وشَكَّله بألحانة وتوزيعاته وأغنياته عامًا بعد الآخر، في مراهقتي لم أملك عرابًا، أو بمعنى أبسط صديقًا أكبر مني سنًا، عادة ما يلعب هذا الدور واحد من أبناء العائلة الأقرب سنًا، الخال الأصغر أو العم، وربما معلم في المدرسة، على النقيض كنت أرى في «حميد» أبا روحيًا لمراهقتي، لم أمتلك في مرحلة ما قبل الإنترنت سبيلًا للاقتراب منه سوى أشرطة فيديو مصورة لحفلات الجامعات، كنا نؤجرها من نوادي الفيديو بالساعة، فيما كنا نرى «حميد» زعيمًا لحركة تعيد صياغة تفاصيل حياة الشاب المصري، بدايةً من الموسيقى التي يسمعها، وصولًا إلى الظهور بالترينتج سوت الذي أصبح زيًا رسميا لشباب المرحلة.

وصلنا في الموعد المحدد، على باب الاستوديو عرفنا من الأمن أن «حميد» في انتظارنا، كانت بداية مبشرة لاستقبال لائق، هؤلاء المشاهير لا يهتمون عادة بمواعيد هامشية يمنحونها لأصوات باحثة عن فرصة أو ملحن مبتدئ يفتش عن شهادة ميلاد فنية، فقط «حميد» كان وما زال حريصًا على احترام تلك النعمة، نعمة الأخذ بيد الآخرين، بينما يراها هو ديْن يسدده للقدر الذي جعل أحد أصدقائه يفتح له

بـاب النجـاح، عـام ١٩٨٠ تقريبًـا كان «حميـد» قـد عـاد مـن لنـدن إلى القاهـرة؛ لاسـتكمال دراسـة الطـيران، رحلـة لنـدن في الحقيقـة لم تكـن فرصـة لمنـح «عبـد الحميـد عـلي الشـاعري» شـهادة لقيـادة الطائـرات، بقـدر مـا منحتـه مسـاحة للتعـرف عـلى أحـدث التطـورات في مجـال الموسـيقى، وهنـاك سـجّل عـددًا مـن الأغـاني التـي كانـت ورقـة اعتـماد لـه أمـام المنتجـين في مـصر، أحـد أصدقائـه وهـو الموسـيقي وحيـد حمـدي -عـازف بفرقـة أبنـاء إفريقيـا- تـبرّع وأعطـى المنتِـج هـاني ثابـت شريطًـا يضـمّ بعـض الأغنيـات لـ«حميـد»، أعجبـت «ثابـت» التجربـة، وتعاقـد مـع «الشـاعري» عـلى ألبومـه الأول «عيونهـا»، كان عمـلًا عائليًـا تقريبًـا شـارك في تلحينـه وغنائـه مجـدي وحسـين وفهمـي الشـاعري، بمسـاعدة نـاصر المـزداوي، وغلبـت اللهجـة الليبيـة عـلى الألبـوم، خاصـة وأن أغلـب أغنياتـه كانـت مـن الفلكلـور الليبـي، ولهـذا فشـل الألبـوم فشـلًا ذريعًـا، قـال عنـه حميـد سـاخرًا: «إن عـدد النسـخ المرتجعـة منـه فـاق مـا تمـت طباعتـه مـن نسـخ أصليـة!».

(٢)

في اسـتراحة الاسـتوديو تناولنـا كوبـين مـن الشـاي، وجلـس صديقـي يدنـدن عـلى الجيتـار حتـى خـرج لنـا «الكابـو»، بـدا عليـه الإرهـاق، عينـان حمـراوان ولحيـة كسـتها شـعيرات بيضـاء، ولكـن ابتسـامته الواسـعة ظلـت حـاضرة وهـو يرحـب بنـا: «يـا هـلا يـا شـباب.. اعـذروني أنـا مطبـق بقـالي يومـين».

فهمنا رغبته في سماعنا دون أن نطيل عليه، عزف صديقي لحنًا أعجب «حميد» الذي نصحه بأن يغير الكلمات بأخرى أكثر بهجة: «إنت عامل جملة موسيقية حلوة.. عايزة كلام يعبر عنها»، ثم عزف لحنًا آخر، فصفق له، وأشعل سيجارة، ثم قال: «سمّعني تاني».

سلطن اللحن «حميد»، وقرر أن يرشحه لأحد الأصوات الشابة التي يتبناها، وعرفنا ليلتها أنه قارب على الانتهاء من تسجيل ألبوم جديد لمجموعة من الأصوات الشابة، قال له: «لولا أننا قفلنا الشريط كنت خدته وغنيته، بس تتعوض.. إنت ملحن شاطر جدًا»، بعد عام صدر الألبوم يحمل اسم «ميوزيك ناو»، وقدّم من خلاله حسام حبيب، وهيثم شاكر بأغنيته الشهيرة «أحلف بالله».

كنت أتابع الحوار في صمت حتى سألني: «وانت شاعر ولا ملحّن»، قلت له: «لا أنا صديقه وجئت فقط لأسلّم عليك»، إلا أن صديقي قاطعني بسرعة: «صوته حلو أوي يا كابو اسمعه».

وجدتُ نفسي في ورطة، أدندن فقط مع أصدقائي، ولكن الغناء أمام «حميد» مكتشف هشام عباس، وحكيم، ومصطفى قمر، وإيهاب توفيق... أمر آخر، ألحّ «حميد» طالبًا مني التخلي عن خجلي، فغنّيت أقرب أغنياته إلى قلبي «عودة»، أو كما يسميها الكثيرون «في سكوت»، استند بظهره، وعاد معي بالزمن لسنوات بعيدة، وفجأة شاركني الغناء، وصديقي يعزف على الجيتار.

«عودة» إحدى أهم أغنيات «الكابو»، أجدها حتى الآن

تتصدر قائمة تفضيلاتي في «ساوند كلاود»، سمعتها لأول مرة في صيف ١٩٩٢ ضمن أغنيات ألبوم «كواحل»، آخر ألبومات «حميد» قبل إيقافه من نقابة الموسيقيين برئاسة الموسيقار صلاح عرام، وهذه قصة أخرى لا تقل غرابة عن الخدعة التي فعلها «حميد» ليفوز بالأغنية من ملحنها مصطفى قمر.

يحكي كاتب الأغنية الشاعر سامح العجمي: «كنا في الاستوديو نتابع تحضيرات ألبوم مصطفى قمر الجديد «لياليكي»، وكالعادة كان حميد مشرفًا موسيقيًا على الألبوم وموزعًا لأغنياته، سمع «حميد» الكلمات فأعجبته جدًا، وبعد قليل دخل «مصطفى»، وقال له إنه لحّنها وسيضمها لألبومه.. هل انتهت القصة؟

(٣)

عقارب ساعة الاستوديو تشير إلى الخامسة فجرًا، جئنا لنفوز بربع ساعة من وقت «حميد» فجلسنا ساعة ونصف، والنوم الذي يخيم على عينيه غادر سريعًا، سمعنا بعض الأغنيات التي يجهزها، وتناولنا فنجانين من القهوة، بينما أمسك «الكابو» الجيتار وواصل العزف، ليعدّل شيئًا في اللحن لصديقي، وسط الحديث كشف عن رأيه بوضوح في ألبوم «تملي معاك» الصادر منذ أشهر لصديقه عمرو دياب، رغم القطيعة الفنية الطويلة قال: «ألبوم تملي معاك من أعظم ما قدّم عمرو طوال مشواره»، لمست صدقًا فيما

يقولـه، فسـألته عـن سر الخـلاف الـذي أوقـف العمـل بينهـما أثنـاء تسـجيل ألبـوم «قمريـن»، اكتفـى بـردّ دبلومـاسي: «خـلاف في وجهـات النظـر بـس». بعـد قليـل عـرف أنني بـدأت خطـواتي الأولى في الصحافـة، قـال لي: «أنـت مـشروع مطـرب، تملـك خامـة صـوت جيـدة وإحساسًـا ملموسًـا، ولكـن افعـل مـا تحـب، لـو عايـز تغنـي غنـي، لـو عايـز تكتـب اكتـب، كُـن مـا تريـد لا مـا يريـده الآخـرون».

هنـا في نفـس الاسـتوديو قبـل ١٢ سـنة، راهـن «حميـد» مصطفـى قمـر عـلى دور كوتشـينه مقابـل الأغنيـة، يضحـك مديـر الإنتـاج فايـز عزيـز أحـد شركاء النجـاح في شركـة «سـونار» صانعـة نجـوم التسـعينيات، وهـو يقـول: «حقيقـي حميـد تمسّـك بالأغنيـة جـدًا، وأمـام رفـض مصطفـى راهنـه عـلى دور كوتشـينه، ومـن يكسـبه سـيغني «عـودة»، وكالعـادة فعلهـا «حميـد» وفـاز بالـدور والأغنيـة، أمـا مصطفـى قمـر فقدّمهـا لـه بنفـس راضيـة فعـلًا، ربـما كان امتنانًـا لـ«حميـد»، ولكـن مصطفـى قـدّم الكثـير مـن الألحـان لأصدقـاء المرحلـة بمحبـة حقيقيـة».

صـدر ألبـوم «كواحـل» في مطلـع ٩٢، وصـوّر «حميـد» الكليب مـع المخـرج طـارق الكاشـف، وأنتجتـه قنـاة **mbc** الوليـدة في هـذه الفـترة، كليـب بسـيط يجلـس فيـه مرتديًـا تي شـيرت أسـود، ويعـزف عـلى الجيتـار في مقهـى خـالٍ، ولكـن «حميـد» حـرص على ظهـور رجالـه معـه في الأغنيـة، كل الأصـوات الشـابة التـي قدّمهـا كانـوا إلى جـواره، في مقدمتهـم مصطفـى قمـر، وإيهـاب توفيـق، وأمـين سـامي، الـذي يعـدّ أجمـل أصـوات هـذه الدفعـة، ولكنـه لم يملـك عنـادًا وحظًـا يكمـل بهـما الطريـق.

طريق العودة لمنزلي سأقطعه صباحًا قبل استيقاظ القاهرة البائسة، وسيارة صديقي الملحّن تعطلت في الخارج، وبعد زقتين تحركت بنا، خرجت من الاستوديو على وعد بلقاء آخر مع «حميد»، فقط وعد يوثق في ذاكرتي اللقاء الأول، لم تدخل تقنية الكاميرات على الهواتف المحمولة وقتها كي نوثق كل لحظة، في زمن ما قبل «إنستجرام» و«فيس بوك» وصور السيلفي كان «الأوتوجراف» هو الحل لمن لا يملك كاميرا فوتوغرافية، الأوتوجراف توثيق معتاد لذكرى وحيدة بين النجم والمعجب، حتى لو اضطر الأخير لمنحه كُمّ قميصه ليوقّع عليه، كدتُ أن أفعلها، ولكنني تراجعت حفاظًا على قميص كنت أعتزّ به، مرّت سنوات قليلة قبل أن يتخلى صديقي عن حلم التلحين، ويسافر للعمل مهندسًا في الإمارات، أما أنا فقابلت «حميد» مرة أخرى بعد عشر سنوات في ميدان التحرير ليلة خطاب مبارك العاطفي قبل تنحّيه بأيام، كان بصحبة بعض الأصدقاء المشتركين، أخذنا صخب حديث السياسة من التحرير حتى ميدان طلعت حرب، قبل أن يتذكّرني متسائلًا: «إحنا اتقابلنا قبل كده؟».

«عودة»
غناء: حميد الشاعري
كلمات: سامح العجمي
ألحان: مصطفى قمر
توزيع: حميد الشاعري
إنتاج: هاي كواليتي